٣ ـ أحمد رامي

للأستاذ دريني خشبة

لعلنا لم نفاجىء أحداً بتلك الصورة الشاحبة التي حاولنا أن نرسم بها خطوطاً سريعة لقلب رامي ... ذلك القلب الذي كان الناس يحسبونه خلق للفرح والمرح والغناء ، والليالي الساهرة الطروب . فإذا هم يرونه قلباً ينضج بالآلام ، ويفيض بالمآسي ، التي استحالت في فم الشاعر شدواً حزيناً باكياً ، وغناء رقيقاً رفيقاً موجعاً . وإذا هم يرونه قلباً عالياً يخفق بآمال الإنسانية وآلامها . يكلم الناي ويناجي البدر ، ويتوجع للسقيط ، ويخاطب الطير ، ويرثي للجمال الراحل ، ويرق للغريب ، وينتدب حظ الهزار السجين ، وينتفض لليتيم ، ويبكي للحبيب ، ويأسى للزهرة الذابلة ، ويخفق بجناح الرحمة فوق قبر الجندي المجهول[1]

ونحن لا نعتذر عن هذه الصورة الشاحبة ما دامت هي الصورة الحقيقية لقلب رامي ، وما دامت هي النبع الصافي الذي شاعت موسيقا خريره في أغانيه . في تلك السنين العشرين التي ظل رامي طوالها أسطع شاعر من شعراء الغناء في مصر ، بل في العالم العربي كله

لم يطبع رامي من شعره الكثير الزاخر غير هذه الدواوين الثلاثة التي يجمع أولها شعره بين سنتي ١٩١٦ و ١٩١٧ ، وثانيها شعره بين سنتي ١٩١٨ و ١٩٢٠ ، وثالثها شعره بين سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٥ . كما نشرت له سنة ١٩٤٢ مجموعة من شعره لأغانيه . ويختلف الجزء الثالث عن الجزء الأول والثاني اختلافاً شديداً بيناً ؛ إذ نرى الشاعر في أول الديوان يشكو عزوفاً عن قول الشعر . ونراه يحن إلى جنته الأولى التي طالما خفق فيها بجناحيه . وحلق فوق أفنانها يغازل الحور ويعب من الخمرة الإلهية . . . ونراه لا ينظم في العام الطويل العريض غير قصيدة واحدة أو قصيدتين يتشوف فيهما إلى عروس غابه التي كانت تلهمه وتوحي إليه . ثم صدت عنه فجأة . . . وولت لا يدري إلى أين ...

أين وحي الخيال والوجدان ... يستقي منه خاطري ولساني

طال صمتي حتى خشيت على شعري ... أن يفنى وحمت وأد بياني

أسكوت والكون جم المعاني ... وسكون والنفس في ثوران

هذه نضرة الطبيعة تنثنا ... ل جمالاً على محيّا الزمان

وحرام في ليلة البدر ألا ... تسمع الأذن سجعة الكروان

وحرام ألا يحيي طلوع الـ ... ـفجر طير الصباح بالألحان

وحرام ألا تميل غصون الـ ... ـروض في هبة النسيم الواني

لست أدري أأستجم لخطب الد ... هر أم أنطوي على أحزاني

يا بنات الشعر افجعيني وغنيني وهاتي من شيقات المعاني

ودعيني إما أنوح على حظي وإما أبكي شبابي الفاني

لا أريد المضي عن هذه الدنيا ولم تمتلئ بيث جناني

إن صعبا على المراهر تبلى ... لا تناغى على أكف القيان

وشديداً على النفوس مدارا ... ة أساها بالصبر والكتمان

فاجعلي أنتي روياً فبعض النوح أشجي من مطربات المعاني

ودعي همسة الضمير تدوّي ... من عميق الآباد في الآذان

ربما شاق لحنها قلب محزو ... ن وراقت ألفاظها سمع عان

كنت رطب اللسان ينطف منه ... ريق الشعر بين آن وآن

وإذا بي حرمت نفسي سلوا ... ها وحرمتها على إخواني

هذه أبيات من قصيدة جميلة لم يقل رامي غيرها في مدى ستة أشهر . وإليك أبياناً من قصيدة أخرى لم يقل غيرها في مدى ستة أشهر كذلك :

إني لأخشى أن تموت عواطفي ... ويجف ذاك النبع من أشعاري

وتقر نفسي بعد ثورتها فلا ... يهتاجها شيء سوى التذكار

وترى مجال الكون عيني خالياً ... من بهجة الآصال والأسحار

إني ليحزنني بقائي صامتاً ... ولدى هذا الكنز من أفكاري

وأكاد أندب خاطري ومشاعري ... وهمسا إلى نفائس الأذخار

في الشعر تأساتي وفيه رفاهتي ... وإليه أشكو صولة الأقدار

فإذا سكت فقد حرمت شكايتي ... ولرب شكوى نفست أكداري

ترى ، لماذا صمت رامي هذا الصمت الذي أفزع خياله ، وأرق شيطانه ، وجعل عرائس الشعر تجأر بالشكوى من طول ما سكت البلبل ؟! إن رامي يجيب على ذلك بقوله :

هل زال من دنياي حسنٌ هزّني ... أم قرّ في قلبي لهيب النار ؟

(١) هذه كلها أسماء لقصائد نظمها رامي

حب تضرم فى حنايا أضلعى فأصابه يأس بطول قرار (؟؟)
وبكيته حتى ملات بكاءه فسكت منطوياً وحزنى وار
وأردت أسدل فوق ماضى صبوتى
من طول أيامى فضول ستار
فإذا الحياة خلت من الحسن الذى
قد كان فيهـــا متعة الأبصار
وإذا بها أفوت من المعنى الذى
قد رافنى فى سالف الأدهـــار
وإذا بقلبى فى مناحى أضلعى مثل الغريب غدا رهين سفار
مستوحشاً فى مهمه متطاول بعدت مطارحه على الأنظار

ويزيدنا علماً بمأساة قلبه ، فيقول هذه الأبيات الخوالد :

لمن الغناء أقوله فأصوغه من أدمعى ودمى وطيب سرارى
ومن الذى يوحى إلى من الهوى قبس الخيال ، وصدحة الأوتار
ما أطلق الطير الصدوح بشدوه
مثل ابتسام الزهر والنوّار
أو نضر الزرع البهيج زهوره كالشمس والماء النمير الجارى
أو أرقص البحر الخضم عبابه كالبدر يشرق باهر الأنوار
الحب نبع الشعر منه تفجرت عين المعانى والخيال السارى
الحب لحن النفس وقعه على وتر القريض بنان موسيقار
الحب يفسح فى الحياة مراحها ويحفهـــا ببدائع الآثار
فلرب ساعة خلوة هنافة طالت عن الأجيال والأعمار
ولرب وجه أبدعت قسماته أبهى من الجنات والأنهار
ولربما فاقت مناجاة الهوى معنى ومغزى ممتع الأســفار
ولرب ثغر باسم أحيا المنى وأطارها فى النفس كل مطار
هذا هو الحب الذى أشتاقه فيهيج ساكن روحى الزّخار
ويعدّنى بالشعر معنى ساميا ويبث فيه جلائل الأسرار

وبعد ... فنخشى إذا أطلنا الاقتباس على هذا النحو أن يخرج المقال مكتوباً بقلم رامى نفسه ... وبعد أيضاً ، فلنسأل رامى عن هذا الحب العجيب الذى تضرم فى حنايا أضلعه ، وبكاه حتى مل بكاءه ، ثم سكت منطوياً عليه وحزنه وار ، وأراد أن يسدل ستاراً على ماضى صبوته ، فلما فعل ، وجد الحياة قد أقفرت من معناها الجميل الذى كان يروقه فى الزمان الغابر .

وإذا ...

وإذا بقلبى فى مناحى أضلعى مثل الغريب غدا رهين سفار
مستوحشاً فى مهمه متطاول بعدت مطارحه على الأنظار ؟!

ولله هذه الصورة الرائعة للقلب الذى أقفر من الحب ، يصورها خيال رامى الشاعر المبدع الفنان ! إنها لصورة تذكرنا بصور صديقنا العبقرى الدكتور ابراهيم ناجى ، صاحب القلب :

الشهيد المتوارى فى الضلوع !

وهنا ... يجب أن نقف قليلاً لنقذف فى أسماع شعرائنا خاصة ، وأدبائنا عامة ، بذلك السؤال الذى طالما هممت أن أكتب فى موضوعه كلاماً طويلاً لا ينتهى ، أناقش فيه أولئك الشعراء والأدباء الحساب عن قصص قلوبهم ، وأنباء حبهم ؟

لماذا لا يصارحنا سادتنا الشعراء والأدباء بأنباء ذلك الحب الذى يخفونه عنا ، وهم يعلمون أن :

الحب نبع الشعر منه تفجرت عين المعانى والخيال السارى
والحب لحن النفس وقعه على وتر القريض بنان موسيقار

لماذا يتركنا سادتنا الشعراء والأدباء فى ذلك الظلام الدامس من أنباء حبهم ، ونحن لا نفتح كتاباً من كتب تاريخ الأدب فى الشرق أو الغرب إلا ونطالع من أنباء غرام الشعراء والأدباء المفصلة تفصيلاً تاماً ظريفاً طريفاً ما نقف منه على أهم صفحة فى كتاب حياة كل منهم ؟ أى شاعر من شعراء العرب الجاهليين أو المخضرمين أو الإسلاميين أو الأمويين أو العباسيين لا نعرف قصة حبه رائعة مفصلة ؟ وأى شاعر من شعراء الغرب لم تكتب عن أخباره الغرامية الكتب والمؤلفات ؟ هل يعتبر شعراؤنا الخوض فى أحاديث حبهم فضيحة ؟ حبهم الذى أثمر لنا أشهى ثمار الشعر المصرى الحديث ، والقصص المصرى الحديث ، والأدب المصرى الحديث ؟

إن امتناع رامى هذه الحقبة الطويلة عن قول الشعر بسبب نكبته فى حبه الذى نجهل أخباره ، يشبه امتناع ناجى عن قول الشعر تلك الحقبة الطويلة التى تكلمنا عنها حينما كنا نكتب عنه ، وذلك بسبب نكبته فى حبه الذى نجهله كذلك ، والذى أبى ناجى أن يحدثنا عنه « لأن أوان ذلك لم يؤن بعد » كما قال لنا مرة ونحن نحاوره فى ذلك :

لماذا نجهل حديث حب ناجى ، ونحن نعلم حديث حب شلى ؟
ولماذا نجهل حديث حب رامى ، ونحن نعلم حديث حب قيس ؟
ولماذا نجهل حديث حب على محمود طه ، ونحن نعلم حديث حب بودلير ؟
ولماذا نجهل حديث حب العقاد ونحن نلم بأحاديث حب بيرون ؟